

بقلم: مصطفى لطفي المنفلوطي .. أفضل ما سمعتُ في باب المروءة والإحسان أن امرأةً بائسةً وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوّقو الناس في تلك الليلة لابتياح اللعب لأطفالهم الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليو بعين ولدنا الصغير الذي تركتو في منزلها ينتظر عودتها إليو بلعبة العيد، كما وعدتو، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيو ساعة، والرجل يغالي بو مغالة شديدة، فسأقتها الضرورة التي لا يقدّرنا إلا من حمل بين جنبيو قلباً كقلب الأم، ولا يشعر بمكانها، ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفتين مختلفتين: خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، ثم تركها وشأنها، وذب إلى مخفر الشرطة فجاء منو بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها، ففاجأوا وي جالسة بين يدي ولدنا تنظر إلى فرحو وابتهاجو بتمثالو نظرات الغيبة والسرور، وبجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخةً عظمية، لا على التمثال الذي انتزع منو، بل على أمو المرتعدة بين يديو، فانتفض انتفاضةً شديدةً، وصعب عليو أن يترك هذه الأسرة الصغي رة المسكينة حزينةً منكوبةً في اليوم الذي يفرح فيو الناس جميعاً، فإني لا أبيعُ هذا النوعَ من التماثيل، فشكرت لو فض لو ومروءتو، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعلَ عيدما أسعدَ وأننا ممّا كانا يظنان. ولأولادهم اللعب والتماثيل، ثم ناموا ليلتهم نوماً بادئاً مطمئناً تتطائر فيو الأحلام الجميلة حول أسرتهن، يئنون في فراشهم أنيناً يتصدع لو القلب، ويزوب لو الصخر، حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم، يسألونهم بألسنتهم وأعينهم: ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناظدم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها. فهل لأولئك السعداء أن يمدُّوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البرِّ والمعروف، إنَّ رجلاً يؤمن بالله ورسلو، ويحمل بين جنبيو قل باً يخفق بالرحمة والحنان، في طريقيو إلى معبده، أو منصرفو من زيارتو، دامعة العين أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها أن تقع أنظاربن على بؤسها وفقربا، فلا يجد بدا من أن يدفع عن نفسو ذلك الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنو يعلم أن جميع ما اجتمع لو من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبو، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها